المتكلم بين النظر البلاغي والنظر التداولي من خلال كتاب الطراز للعلوي

أ: سالم عبد الباسط جامعة أم البواقي

الملخص

بين نظرة بلاغية قديمة ، وأخرى لسانية تداولية حديثة ، اتجهت أنظار الدارسين إلى المتكلم بوصفه منطلق العملية التواصلية ، وعليه يتوقف أداء الخطاب ،بغية التأثير في مكافئه السامع ، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتقف على الأطر العامة للتواصل السليم في ظل البلاغة العربية من خلال رؤية الإمام يحي بن حمزة العلوي وفي الوقت نفسه تستضيء بنور ما توصلت إليه الدراسات اللسانية الغربية الحديثة ولا سيما الحقل التداولي.

Summary

Between an old phrasemaking and modern linguistics palpation all sights focused on the speaker to describe the beginning of communication operation so on which Dependsthe performance of speech in order to impact to rewards the listener and from here came this study to stand on the general aspects for the right communication under the Arabicphrasemaking through the vision of imam YahyaBen HamzaAlawi and in the same time in lights what the western linguistics resulted on specially palpation field.

انطلاقًا من كون اللسان أداة للتبليغ، إذ من خلاله يستطيع الإنسان تأدية الكلام و تحصيل الإبانة عمّا في النفس، و التواصل مع الغير لتحقيق الفهم و الإفهام، فإنّ **المتكلم** « هو الذات المحورية في إنتاج الخطاب لأنّه هو الذي يتلفظ به »[1] و تتجلى أهمية المتكلم في عملية التخاطب كونه منطلق الرسالة و مصدرها و يسعى من ورائها إلى تحقيق غرضٍ مقصود « و معنى هذا أنّ العملية التواصلية القصدية تفترض طرفين أساسيين مرسل و متلقٍ »[2]

فالمرسل (المتكلم) هو العنصر الفاعل في كل خطاب تواصلي، و هذا ما نجده ماثلًا في البلاغة العربية، و قد كان تفطنهم لهذا المتكلم الفاعل منذ البدايات الأولى للدراسة البلاغية لذلك نجد « البحث البلاغي يهتم بلغة المتكلم الفاعل والقاصد، عكس البحث اللغوي النحوي الذي يتكفل بلغة الواضع و هو ما يقابل الثنائية الواردة في جل الدراسات اللسانية الحديثة **نسق اللغة/ نسق الاستعمال** »[3]

و لعلّ الحال التي تكلّم عنها البلاغيون، تتسع لتشمل المتكلّم كما المخاطب بوصفهما عنصران متلازمان في كل مقام خطابي « فمراعاة حال المتكلم شكلًا و مضمونًا تقف جنبًا إلى جنب مع مراعاة حال المخاطب، أما قصر المطابقة على حال المخاطب فقط فهو نوع من الاقتصار غير مفهوم تمامًا »[4].

وقد تنبّه اللغويون العرب إلى جملة من الأسس التي تعد من ركائز الدراسات التداولية الحديثة، فراعوا دراسة اللغة في كيفية استعمالها وفق سياقاتها المختلفة كما وقفوا على كثير من المفاهيم المرتبطة خصوصًا بعناصر الحدث الكلامي كمقاصد المتكلمين، و مراعاة حال المخاطبين، والغرض الذي سيق له الخطاب. [5] فعملية الكلام عملية ذهنية تترجم من خلال التركيب لإبلاغ مقاصد و أغراض معينة، و قد ركّز البحث البلاغي على المتكلم الذي منشئ الكلام يتوجب عليه معرفة اللغة، لأنّها حاملة المعاني إلى المخاطب وحسن استعمالها شرط في إتمام الرسالة على الوجه الذي يسفر عن المراد و هنا يحضر الأداء اللغوي و الكفاءة اللغوية .

ومنذ البدايات الأولى للتقعيد البلاغي نقف على توجّه البلاغيين إلى المتكلم كما ينقل **الجاحظ** (ت255هـ) عن بشر بن المعتمر إذ يقول:« ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، و يوازن بينها و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، و لكل حالة من ذلك مقامًا حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، و يقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات »[6] فبشر بن المعتمر قد وجّه عنايته إلى اللفظ و ملاءمته للمعنى، وأن المتكلم المتمرس هو الذي ينجح في إفهام العامة معاني الخاصة، و الذي يراعي بين المعنى و المستمعين، فلكل طبقة كلام، و لكل حال مقال[7].

« فالبليغ هو من يتقن المرور و التنقل بين المقامات و المقالات، وهو من يعرف كيف يوازن بين عناصر المقال اللغوية والأدبية و بين عناصر المقام و مقتضياته، وكيف يشتغل بالعلاقات الملائمة التي من الضروري أن ينشئها»[8]

إنّ القدرة اللغوية لدى المتكلم هي التي تتيح له القدرة على التواصل و التعبير الصحيح و إبلاغ المعنى المقصود إلى المتلقي و لا يتأتى له ذلك إلّا بحسن المناسبة بين الألفاظ و المعاني و المقامات « إنّ الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس وإذا كان كذلك وجب أن يتخيّر من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد ، وواضح في الإبانة عن المعنى المطلوب ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ولا مستكره المورد على النفس حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الإفهام »[9]

إنّ الغاية التي يروم إليها المتكلم هي إفهام السامع، و لكي يبلغ الغاية التي ينشدها للتعبير عن القصد عليه أن يكون عارفًا باللغة في مستوياتها المختلفة، لاسيما المستوى الدلالي، أي معرفة العلاقات بين الألفاظ و المعاني، فضلًا عن معرفة التراكيب اللغوية و استعمالاتها في سياقاتها المتنوعة، و بشكل عام معرفته بكل ما يحيط بعملية إنتاج الخطاب[10] « فالزلل في الجهل باللغة مؤدٍ إلى تحريف الألفاظ و فساد معانيها والزلل في الإعراب يؤذن بفساد المعاني والتباسها،وفساد التصريف يبطل قوالب الألفاظ وجريها على مجاريها القياسية » [11]

فالمعرفة باللغة وما يمكن تسميته بالكفاية اللغوية شرط لا غنى عنه في عملية التواصل« و يعني الكفايات اللغوية أولًا القدرة على الإنتاج في لغة العرب وفق الأصول و القواعد التي وضعتها علوم اللغة، و

تعني ثانيًا أنّ الكفايات اللغوية يحتاجها الخطيب أو الشاعر أو الكاتب غير التي يحتاجها المتكلم العادي »[12] فالكفاية اللغوية هي ما يجب أن يمتلكه منشئ الكلام من معرفة و خبرة باللغة لتمكنه من إنتاج خطاب متميز في لغته عن الكلام التواصل اليومي من غير أن يفقد أهم وظائفه و هو الإقناع و التأثير.[13]

و البلاغيون العرب في نظرتهم إلى حصول البلاغة قد اعتنوا بهذا الجانب فلم يهملوه فنجدهم طيلة مسيرة التأليف البلاغي يؤكدون على ضرورة « معرفة اللغة مما تداولته الألسنة و كثر استعماله و صار مألوفًا لأن موضوعه هو البلاغة و الفصاحة و هما من عوارض الألفاظ و المعاني فمن لم يعرف شيئًا من اللغة لا يمكنه أن يخوض في عارض من عوارضها فيحصل له من الألفاظ المفردة معرفة معانيها الموضوعة لها »[14]

فالكفاية اللغوية هي « القدرة الراسخة لدى المتكلم على أن يحدّث و يشخص و يحدد و يعرف و يحقق سلسلة صوتية لها بنية تركيبية و معنى، تتمثل التأدية في تحقيق هذه الملكة و إنجازها أي هي ما يقوم به المتكلم عند إحداث الكلام »[15] إنّ الكفاية اللغوية تتيح للمتكلم الاستعمال الجيّد للغة فيكون التعبير عن الغرض أكثر وضوحًا .

و من هذا المنطلق كانت تلك الشروط التي وضعها علماء البلاغة تحت عنوان فصاحة المتكلم فالفصاحة هي:« الإبانة عمّا في النفس بلفظ فصيح، و مدلول الإبانة يقتضي أن يكون المتكلم ذا قدرة متميزة على التصرف في الكلام، و اختيار أفضل السبل، ليحقق وظيفة التواصل اللغوي، وهي الفهم و الإفهام لذا كان أحد العناصر التي يتناولها البحث في الفصاحة، فكان له نصيب من مقاييسها »[16] فسلامة التعبير اللغوي أساس عملية التواصل لأنّ الغاية منه الإبانة عمّا في الذهن و كل الأغراض و الحاجات النفسية« فمقومات فصاحة المتكلم تعزى إلى القدرة على تمييز الجيّد من الرديء و انتقاء عناصر التعبير الذي يفضي إلى الإبانة عن أفكاره وأغراضه و مشاعره »[17] فالفصاحة هي أن يجيء المتكلم بألفاظ و عبارات فصيحة و لا يتأتى له ذلك إلّا عن طريق مقدرة لغوية يستطيع من خلالها التعبير عن المقصود بلفظ فصيح، فالفصاحة – إذا – ملكة وجودية راسخة في المتكلم[18] و في هذا المقام يتجلى **مصطلح الذوق** كونه كفاءة تداولية متحققة مسبقًا في طبع المتكلم

« تحصل بممارسة كلام العرب و تكرره على السمع و التفطن لخواص تراكيبه »[19] وكي تتحقق التأدية السليمة للكلام في رأي العلوي وفق شروط أهمها:

أ. **<u>حسن الذوق</u>**: فالذوق شرط أساسي للمتكلم، لأنّه سمة متعلقة بمراعاة أحوال الخطاب لاسيّما متلقي الكلام باعتباره المقصود بالرسالة و لذلك « كل منطوق لغوي من المنظور البراغماتي (تداولي) ليس منطوقًا من مضامين فحسب بل هو منطوق من المقاصد أيضًا [20] فالآليات التداولية تتعارض مع اللفظ (الغث) أي الذي لا تراعى فيه المناسبة، لذلك كان لابد من مراعاة ما يتلقاهالسامع بقبول حسن[21] و لذلك فإنّ « **مستند الحسن و القبح و الإعجاب و النفور في تأليف**

الكلام إنّما هو سلامة الطبع و تحكيم الذوق، هو أنّ الكلمة الـواحدة إذا ألفـت تألـيفًا مخصوصًا كانت غاية في الرّكه على اللـسان يزدريها كل من سمعها فإذا عكست صارت أرق ما يكون على الألسنة و ألطف و أعجب و مثاله قـوله : ملعف إنّها ركيكة ...

فإذا قلبنا تأليفها قلبًا مخففًا، و قيل فيها – "علم" – من العلم كانت أوقع ما يكون في الفصاحة و أدخل ما يكون في الرقة و اللطافة »[22]

فالفصاحة في نظر العلوي إنّما ترجع إلى بنية اللفظ الصوتية، و تآلف أحرف الكلمة و الابتعاد عن الألفاظ التي تثقل على المتكلم، و على هذا الأساس « يتفق تصور البلاغيين العرب لمسألة الفصاحة و تصور سيمون دايك من جهة تشديدهما على أولوية الطابع الصوتي للغات الطبيعية تفرض عددًا من القيود الفيزيولوجية على طبيعة تنظيمها، فمن جهة أولى يجب أن تتحقق بنيات اللغة و متواليـاتها الصوتية بشكل خطي، و من جهة أخرى يجب أن يتم تلقي تلك المتواليات بجهاز سمعي » [23] فما يستسيغه المتكلم ويستحسنه في النطق هو معيار الحسن « فمتى روعيت هذه الاعتبارات و ألفت الكلمة من الأحرف السهلة كان الكلام في نهاية العذوبة وجرى على أسّلات الألسنة بالسلاسة و خفة المنطق »[24] فالمتكلم الحذق هو من يراعي خفّة النطق من جهة، و صدى ما يتلفظ به لدى المتلقي.

جـ . تخير اللفظ : يعد اللفظ أحد الأسس التي ينبني عليها التواصل و تركيز البلاغيين العرب على فصاحة اللفظ، إنّما منطلقه سلامة الفهم لـدى السامع« ذلك لأنّهم يرون الفصاحة في البيان و الظهور، و أنّ اللفظ الوحشي الغريب يتنافى مع هذا البيان، و يحول بين المتلقي و الوصول إلى المعنى. »[25] فاللفظ الغريب يحول بين المتكلم والمخاطب و يؤدي إلى غموض المعنى و تعتيمه، فاللفظ – إذا – أهم شرط من شروط الحوار و التداول، و لذلك نجد علماء البلاغة يلّحون على فصاحة الكلمة على اعتبار أنّ الفصاحة معيار يفيد **المقبولية اللفظية**[26]

فكل فعل تلفظي لابد له من ثلاثة أفعال فرعية صغرى هي:[27]

1. **الفعل الصوتي: Acte phonétique** و هو مجرد إنتاج صوتي.
2. **الفعل الانتباهي: Acte phatique** و هو إنتاج الكلمات يكون لها رصيد في المعجم و تكون خاضعة لقواعد النحو و التركيب.
3. **الفعل الإحالي: Acte Rhétique** و هو استعمال الكلمات في معنى معيّن مع تحديد مراجعها، باعتبار أنّ الدلالة هي المعنى و المرجع.

كثيرًا ما نجد علماء البلاغة يذمون التعقيد في الكلام و السؤال لماذا: « لأنّ السامع يصرف قبل فهم المعنى المقصود قوة من انتباهه كان في غنى عن صرفها فيما لو خلا الكلام منه. »[28] فاستعمال الوحشي من الكلام يصرف ذهن السامع إلى وجهة هي في الأصل تتنافى مع مراد المتكلم في تحقيق التواصل و التبليغ، لذلك « في العملية الكلامية لا بد أن تصدر متوالية من الأصوات تنتمي إلى لغة معينة و يجب في هذه

الأصوات أن تكون خاضعة ومطابقة للقواعد النحوية والتركيبية لهذه اللغة، و بذلك تضفي على هذه المتوالية معنى معينًا [29]

و قريبًا من هذا المعنى نجد أبا حيّان التوحيدي يقول: « فأمّا بلاغة الشعر فأن يكون نحوه مقبولًا و المعنى من كل ناحية مكشوفًا، و اللفظ من الغريب بريئًا(...) وأما بلاغة النثر فأن يكون اللفظ متناولًا و المعنى مشهورًا و التهذيب مستعملًا و التأليف سهلًا و المراد سليمًا[30] فالمتكلم شاعرًا أو ناثرًا أو غير ذلك عليه أن يسلك في كلامه مسلكًا مقبولًا يؤدي إلى الغرض المقصود بأيسر لفظٍ و أسهل تركيب.

فترك **التوّعر** في الكلام مطلوب السامع ومقصود المتكلم « اعلم أنّ هذا النظر إنّما يختص بالمفردات فإنّها و إن كانت مختلفة أعني مفردات الحروف في العذوبة و السلاسة فإنّ شيئـاً منها غير مستكره، لكنّ الاستكراه إنّما يعرض من أجل التأليف لما يحصل بسببه من التنافر و الثقل، فلأجل هذا كانت العناية في أحكام التركيب و التأليف، لأنّه ربما حصل على وجه يفيد رقّة اللفظ و حلاوته فيكون حسنًا، و ربما حصل على وجه يفيد ثقلًا و تعثرًا في اللسان فيكون قبيحًا – فإذا – العناية كلها في التركيب »[31]، فأهمية مراعاة التآلف بين أصوات الكلمة الواحدة مرجعه إلى ما تتركه من وقع في نفس السامع ففضلًا عن الاستمتاع بحسن جرسها فهي ذات طاقة تأثيرية و بعد جمالي مفردة و مركبة.[32] « فالألفاظ في سهولة تركيبها و عثورته و سلاسته و وعورته بمنزلة الأصوات في طنينها ولذة سماعها و لهذا فإنّه يستلذ بصوت القمري و يكره صوت الغراب و يستظرف صهيل الفرس، و يستنكر نهيق الحمار »[33] فاختيار الكلمات المعبرة ذات الجرس الحسن من واجبات المتكلم تجاه المخاطب إذا أراد تحقيق الغاية التي يؤمها.

و قد تناول **العلوي** فصاحة الكلمة من نواحي عدة يمكن جمعها في هذا الشكل البياني:

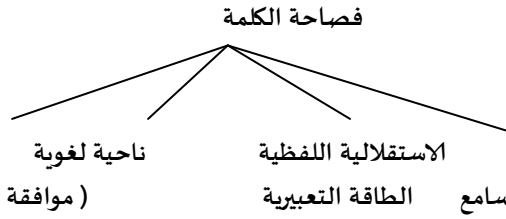

فالفصاحة في تصور " **العلوي** " تبدأ من بنية اللفظ الصوتية وذلك بتآلف حروفها وسلامة تركيبها، والابتعاد قدر المستطاع عن البناء اللفظي الذي يستعصي على الناطق التلفظ به .[34]

ويمكن إجمال شروط فصاحة اللفظ كما يتصوره **العلوي** فيما يلي:

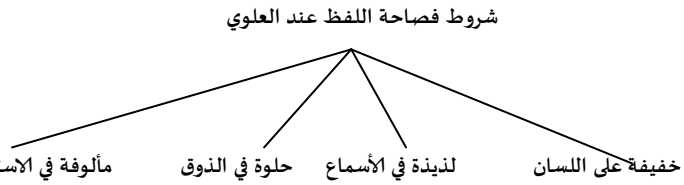

إنّ هناك جملة من الشروط التي يجب مراعاتها في الكلام بوصفه مرسلة تهدف إلى غرض مقصود انطلاقًا من مفهوم البلاغة: « و قد أجمع علماء البلاغة على القول إنّ البلاغة هي إنهاء المعنى إلى قلب السامع و تمكينه في نفسه، شريطة أن يكون المعنى مفهومًا و اللفظ مقبولًا »[35] فالبلاغة بهذا المعنى ليست مجرد إخبار يقوم به المتكلم نحو المتلقي، بل يجب أن يحرص المتكلم على المناسبة بين الكلام والمواقف التي يقال فيها و هذا ما يمكن اعتباره قدرة تواصلية يجب أن يتمتع المتكلم.[36]

و نجد العلوي قد اختار لنفسه مفهومًا للبلاغة يختلف في بعض أجزائه عن سابقيه فيقول: « و المقصود بالبلاغة هو وصول الإنسان بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل بالمعاني، و عن الإطالة المملة للخواطر »[37] فهذا التعريف يحيل على أنّ المتكلم يجب أن تكون له مهارة لغوية يستطيع من خلالها التعبير عن المقصود بحسب ما يقتضيه الموقف فيكون كلامه على قدر الحاجة من غير إخلال بالمعنى أو إملال للسامع، كما يؤكد هذا التعريف على « أنّ الكلام رهنٌ بالمواقف التي يقال فيها، فهو محاولة دائمة للغوص و التنقيب في الذات لاستخلاص أفضل العبارات التي نراها تحقق الغرض و هذا يعني أنّه يلمح إلى أنّ الكلام متنوع تبعًا لتنوع المواقف كما أنّه يحتم اتفاقه مع كل موقف، و هذا ما عبّر عنه البلاغيون بمراعاة مقتضى الحال »[38]

و لهذا لا يمكن أن يوصف الكلام في اللسان العربي بالبلاغة إلّا إذا كان ذا تأثير في السامع، و لكي يكون كذلك لا بدّ من توافر جملة من الشروط اللفظية و المعنوية « و سُمي الكلام بليغًا لأنّه قد بلغ به جميع المحاسن كلّها في ألفاظه و معانيه، و هو في اصطلاح النظّار من علماء البيان عبارة عن الوصول إلى المعاني البديعة بالألفاظ الحسنة، وإن شئت قلت هي عبارة عن حسن السبك مع جودة المعاني »[39] فالبلاغة صفة للكلام الذي يختاره المتكلم حتى يكون ملائمًا للحدث الكلامي الذي يختاره المتكلم حتى يكون ملائمًا للحدث الكلامي ليضمن استجابة المخاطب و لذلك يعد فعلًا كلاميًا لأنّ « الفعل الكلامي **Speech acte** نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية و فحواه أنّه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري »[40]

فعلى المتكلم أن يجتهد في اختيار ألفاظه حتى تفي له بمعانيه لاسيّما وأنّ البلاغة تتجاوز مجرد الإعلام إلى مقصد أعم من ذلك و هو الإقناع و « معناه الحوار بين طرفين بهدف تسليم أحدهما برأي الآخر »[41] و مادام الأمر كذلك فعلى المتكلم أن يجتهد في تحقيق الوسائل اللغوية التي تمكنّه من أداء كلامه و تمكينه في نفس السامع و تتمثل هذه الوسائل في نظر العلوي في:

أ /الوضوح

ب/الملاءمة بين الألفاظ و المعاني

جـ / مطابقة الغرض المقصود

أ/ الوضوح: و هو أهم شرط إذ من خلاله لا ينصرف ذهن المتلقي إلى تأويلات بعيدة تحجب عنه فهم المراد و يكون الوضوح « إن الفصاحة هي أن يكون الكلام سليما في مفرداته وتراكيبه دالا على معناه بوضوح سواء أأدى غرضه البلاغي أم لا »[42] لذلك نجد "العلوي" يشدد على أهمية اختيار الألفاظ الفصيحة التي تحقق الإبانة و تكشف عن المعنى للسامع: « و إنّما الذي يجب مراعاته ويتوجه إليه قصده هو الإتيان بالألفاظ الوجيزة الفصيحة و التجنب للألفاظ الوحشية مع الوفاء في ذلك بالإبانة و الإفصاح، و سواء فهم العوام أم لم يفهموا فإنّه لا عبرة بهم ولا اعتداد بأحوالهم و لا يضر الكلام الفصيح عدم فهمه بمعناه و لهذا فإنّ نور الشمس إذا لم يره الأعمى لا يكون نقصًا في وضوحه و جلائه و إنّما النقص في بصر الأعمى حيث لم يدركهن »[43].

فالمتكلم مطالب بتحقيق شرط الوضوح و البيان في كلامه، و لا يلتفت إلى قصور المتلقي(العامي) وهذا يستلزم أن يكون المخاطب في مستوى المتكلم من حيث المهارة اللغوي ويتطلب أيضًا« وجود اتفاق يستطيع بموجبه المتكلمون أن يقوموا بفعل ما عند التلفظ بكلام ما، و ذلك كالصياغة اللفظية المعروفة لدى المتكلمين، إذ إنّ الإخلال بها لا يؤدي إلى إنجاز الفعل. »[44] فالاتفاق بين المتكلم و المخاطب في متن اللغة و ما تؤديه مفرداتها من معانٍ شرط لا مفر منه في عملية التبليغ « لا يخفى على أحدٍ أنّ اللغة أداة من أقوى الأدوات التي يستخدمها المتكلم لتبليغ مقاصده إلى المخاطب وللتأثير فيه بحسب هذه المقاصد، و بقدر ما تكون هذه الأسباب مألوفة للمخاطب و موصولة بزاده من الممارسة اللغوية فهمًا وعملًا، يكون التبليغ أفيد و التأثير أشد و قد تفطّن مفكرو الإسلام إلى ضرورة العمل بهذه الحقيقة التخاطبية لكي يبلغوا مرادهم في الإفادة و الإقناع »[45].

فمعرفة اللغة و العلم بمفرداتها و ما تحمله من دلالات وضعية و استعمالية وتحكيم الذوق الأدبي في اختيارها و انتقائها على الوجه الذي يحتاجه الموقف الكلامي بكل عناصره هو شرط نجاح التخاطب، « و هذا الشرط تكفّل به مبحث الفصاحة، إذ أنّه يقوم على الخلوص من عيوب في اللفظة المفردة و في الكلام المركب بحيث يؤدي التعبير مقصوده بوضوح »[46] فالمتكلم صاحب الذوق السليم يختار من الألفاظ ما يساعد على حمل المعنى المراد إيصاله إلى المخاطب، فكلما كان شديد الوضوح كان أقدر على التأثير في ذهن السامع و قلبه.

ب/ الملاءمة بين الألفاظ و المعاني:

ما من شك في أنّ الألفاظ هي مبادئ الكلام، و لكي يكون التركيب بليغًا على المتكلم أن يكون ذا حسٍّ جمالي فائق، و ذوقٍ أدبي متميز في اختيار الألفاظ و العبارات، و لذلك نجد العلوي يؤكد على مراعاة الحسن في التأليف: « يجب مراعاة التأليف بين الألفاظ المفردة و الجمل المركبة حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذًا بعضها بأعناق بعض، وعند ذلك يقوى الارتباط و يصفو جوهر نظام التأليف و يصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء أو كالعقد من الدّر فصّلت أسماطه بالجواهر و اللآلئ فخلص

على أتم تأليف و أرشق نظام »[47] فالعلوي بهذا التشبيه الرائق للكلام على أنّه كالبنيان المرصوص أو العقد المنظوم إنّما يحيل على أنّ الكلمة ليس لها قيمة في ذاتها و إنّما تأخذ قيمتها من السياق الذي ترد فيه « فالتأليف يؤدي إلى سياق، و السياق يحوي أشياء كثيرة في فصاحة الكلمة وتأثيرها وهذا يشكل وعيًا جماليًا بالكلمة في نطقها أو في استعمالها و يصبح الجمال الفني قائمًا على معايير الانسجام و التلاحم الدقيق في المعنى والتركيب والتناسب بينهما مع مراعاة الحالة النفسية. »[48] فمن خلال اختيار الألفاظ التي يؤاخي بعضها بعضًا من غير قلق أو تنافر تتجلى كفاءة المتكلم « فشخصية المتكلم أولًا تسهم في بناء ما يتلفظ به شكلًا و معنى سواء تعلق الأمر بشخصيته (معرفته) اللغوية أو المعرفية الخاصة أو الموسوعية العامة، فالمتكلم هو الذي يحمل بعض الكلام على بعض و يقيد بعضه ببعض أو يفصل بعضه عن بعض »[49]

فعملية الاتصال اللغوي و انتظار موقف المخاطب بالكلام هي التي تدفع المتكلم إلى حسن اختياره لألفاظه و إلّا فقد الكلام قدرته التأثيرية لذلك يجب « أن تكون كل كلمة منظومة مع ما يشاكلها و يماثلها كما يكون في نظام العقد، فإنّه إنّما يحسن إذا كان كل خرزة مؤتلفة مع ما يكون مشاكلًا لها، لأنّه إذا حصل على هذه الهيئة كان به وقع في النفوس و حسن منظر في رأي العين »[50] فالمخاطب هو المعني أساسًا في عملية الكلام إذ إليه يتوجه الخطاب « و لعل اتصال المتلقي بالعمل الأدبي استماعًا أو قراءةً قد يعقب بردة فعل من المتذوق، حيث إنّ للكلمة الجميلة و العبارة البليغة أثرًا في النفس »[51] فالأثر الذي تتركه الكلمة أو العبارة التي ينتقيها المتكلم هي التي تضمن سرعة استجابة المتلقي.

ج / مطابقة الغرض المقصود:

تتجلى أهمية الألفاظ في أنّها مادة اللغة و هي حاملة المعاني و على الرغم من أهميتها إلّا أنّها لا تحقق مزية في ذاتها، بل تظهر قيمتها من خلال توظيفها في سياق يضفي عليها معنى خاص: « و لكن بالرغم من أهمية الألفاظ في بناء العمل الأدبي فليس لها قيمة في ذاتها، بل إنّ قيمتها تتضح في موقعها في النص »[52] ويقول العلوي منبها على حسن السياق « واعلم أنّ منزلة المعنى من اللفظ هي منزلة الروح من الجسد فكل لفظ لا معنى له فهو بمنزلة جسد لا روح فيه »[53]

فالتأليف بين الألفاظ يكسبها دلالة ثانية لم تكن في حال الإفراد « و اعلم أن الألفاظ إذا كانت مركبة لإفادة المعاني، فإنّه يحصل لها بمزية التركيب حظ لم يكن حاصلًا مع الإفراد، كما أنّ الإنسان إذا حاول تركيب صورة مخصوصة من عدة أنواع مختلفة أو عقدٍ مؤلف من خرز و لآلئ فالحسن في تركيب الألفاظ غير خافٍ»[54] فانطلاقًا من كون الكلام مرسلة لغوية أريد لها إبلاغ معنى للسامع « فلا ينتج المرسل خطابه إلّا باختيار العلامة المناسبة و بتشكيل الخطاب بما يلائم سياقه و يعد الاختيار مزية، لأن غياب هذه المزية يحرم الخطاب من اتصافه بالبعد الاستراتيجي، إذ يبدو بدونها أشبه ما يكون عملًا إلزاميًا لإخبار مرسلة فيه، مما يُؤذن بغياب التأهيل اللازم لإنتاج الخطاب في كفاءته التداولية »[55]

فالكلام بوصفه فعلًا تلفظيًا صادرًا عن متكلم واعٍ – لا جرم – أنه يحمل قصدية و لذلك حدّه علماء العربية « بأنّه ما تألفت حروفه، و فهم معناه و أفاد سامعه. »[56] فالفهم و الإفادة يجسدان كفاءة تداولية لدى المتكلم و المخاطب معًا، و لا بد للكلام أن يؤدي غرضه بلفظ واضح فإذا عجز عن أداء معناه ضاعت فائدته « و تكون اللغة واضحة كل الوضوح إذا تألفت من ألفاظ دارجة غير مبتذلة. [57] و لهذا نجد العلوي يؤكد على ضرورة أن تكون اللغة معتادة و هذا مفهومه للفصاحة « و إنّما الفصيح ما كان معتادًا مألوفًا يفهمه كل أحدٍ من الناس. [58]

فالحرص على معرفة اللغة لدى المخاطب من خلال الألفاظ المتداولة و المألوفة هو حرصٌ على قصدية الخطاب لأنّ « فائدة الكلام الخطابي إنّما يكون لإثبات الغرض المقصود في نفس السامع، و تمكينه في نفسه على جهة التخيّل و التصور حتى يكاد ينظر إليه عيانًا. [59] فبما أنّ كل مرسلة تستهدف مخاطبا معينا لا محالة ترمي إلى إقناعه بفعل ما(**Convaincer**)، و تبعًا لذلك تكون استجابته و هذا هو تأثير الخطاب.[60](فحسن التأليف لا سبيل إلى تركه لأنّه يتعلق بنظم الكلام في مستواه النحوي(التركيبي)،إلّا أنّ مطابقته للأغراض التي يقصدها المتكلم هي التي تمنحه بعدًا تداوليًا « و هكذا حال الكلام إذا كان مؤلفًا تأليفًا بديعًا و لم يقصد به مطابقة الغرض المطلوب لم يكن معدودًا في البلاغة، و لا كان فصيحًا »[61]

فالبلاغة و الفصاحة في نظر العلوي ذات طابع شمولي من خلال توجهها إلى الموقف الكلامي في كل أجزائه « إذ مادام موضوع البلاغة هو الأدب، فإن المادة التي يتعامل معها هذا العلم هي الكلمات المنتظمة في سياق خاص المنطوية على قيمة، حيث تندرج هذه الكلمات في إطار من العلاقات المتجاورة مع عناصر العملية الإبداعية، بما فيها المبدع بوصفه الفاعل الأساس في عملية الإبداع الفني، و العالم الذي يستمد منه المبدع المادة الخام لإبداعه، والمتلقي الذي يتوجه إليه المبدع بنصه ثم النص الأدبي بوصفه نتيجة التفاعل بين المبدع و العالم. »[62].

و المتكلم البليغ في نظر العلوي هو من أحرز قدمًا في علوم أدبية كثيرة كمعرفة اللغة والعلم بمفرداتها و ما تحمله من دلالات وضعية، و معرفة أبنية الكلم من حيث تصرفها على أوجه مختلفة، و الإحاطة بالتراكيب و قواعدها النحوية، فإذا حصّل المتكلم على كل ذلك تحققت له البلاغة و الفصاحة « فالبلاغة إنّما تحصل بتأليف الكلام ونظمه و إعطائه ما يستحقه من الإعراب ، وإعمال العوامل، و توخي جميع معاني النحو و مجاريه التي يستحقها. »[63]، فالبلاغة – إذا – هي كيفية استعمال اللغة على الوجه الصحيح « أي قدرته على تمييز الكلام الفصيح من غيره و هو ما يتحصل للمتكلم بالسليقة العربية و بتتبع خواص تراكيب البلغاء و بالحس أو الذوق و بعلوم النحو و التصريف و متن اللغة من غير أن يمتنع انصراف هذه القدرة أو الكفاءة إلى المخاطب بمعنى أن الأغراض التي يقصدها المتكلم،و يصوغ كلامه لتأديتها هي أحوال المخاطبين، فكأنها قدرة على المطابقة مع حال المخاطب »[64]

فالمبدأ في بلاغة المتكلم بالنسبة للعلوي هو القدرة على استخدام اللغة و حال المتكلم في ذلك كحال أي صاحب صناعة من الصناعات التي تحتاج مهارة فائقة فنجد العلوي يقول « حال أنفس الكلم مع المؤلف كحال الابريسم مع ناسج الديباج و الذهب مع صانع التاج، فحظه من ذلك إنّما هو تأليفهما و نظمهما لا غير »[65]

فبراعة المتكلم و كفاءته على نظم الكلام و حسن تصرفه فيه وفق ما يقتضيه الموقف هو الباعث على تحقيق مراده و مبتغاه « و إدراك ما ذكرناه من حسن الاستعمال وقبحه في كونها اسمًا أو فعلًا يدرك بالذوق الصافي و القريحة المستقيمة عن شوائب البلادة »[66] فالمتكلم عند العلوي يتميز بحدس لغوي يجعله قادرًا على تمييز الكلام و تفقد المواطن التي يحسن فيها توظيف هذا الأسلوب أو ذاك.

فإلى جانب العلوم الأدبية التي هي الأساس في تحصيل ملكة الفصاحة و البلاغة يضيف العلوي شرطًا آخر يجعل المتكلم خبيرًا بأساليب العرب في كلامهم« و هذا نحو العلم بالأمثال العربية و ما يؤثر عن العرب من الحكم و الآداب في المحافل و الاستظهار بمطالعة الدواوين و الرياضة بحفظ الأشعار فإنّ ذلك يفيد حنكة و تجربة و يكون عونًا على إدراك البلاغة و الفصاحة »[67]

فهذا الحديث عن الحنكة و التجربة لدى المتكلم هو ما يحقق القدرة على استعمال اللغة بحسب السياقات المتنوعة.

الهوامش والمراجع :

[1]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ،بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004، ص 45.

[2]- ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ،1985 ص 164.

[3]- ينظر: عبد الإله بوغابة ، (علم المعاني علم المقاصد التداولية)، مجلة فكر ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، الرباط ، المغرب ، العدد01، 2005 ، ص 80.

[4]- ينظر: محمد بركات أبوعلي، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية و نظرية السياق، دار وائل للنشر، عمان الأردن، ط 1، 2003، ص 83.

[5]- ينظر: أيمن محمود محمد إبراهيم، (أسلوب النداء في العربية، دراسة في تداولية الخطاب)، الندوة الدولية الثانية قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود،المملكة العربية السعودية ، 2014 ، ص 344.

[6]- ينظر: عبد المنعم خفّاجي، الأسلوبية و البيان العربي، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، مصر، ط1 ،1992 ص 62.

[7]- الجاحظ، البيان و التبيين،تح عبد السلام محمد هارون ،مكتبة الخانجي، القاهرة ، مصر، ط7، 1998 ج1/138، 139

[8]- ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب ألإقناعي، دار كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن ،ط1 ، 2014 ص 314.

[9]- الباقلاني، إعجاز القرآن ، تح السيد أحمد صقر، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، دط ، دت، ص 117.

[10]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 183.

[11] - العلوي، الطراز، مطبعة المقتطف ، مصر ، 1914 ، ج 36/1.

[12] - ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 49.

[13] - المرجع السابق، ص 51.

[14] - العلوي، الطراز، ج 1 / ص 32.

[15] - ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط 2، 2006 ، ص 104.

[16] - ينظر: حامد صالح خلف الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء و العلماء، مركز بحوث اللغة العربية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، (د، ط)، 1996، ص 533.

[17] - ينظر: المرجع السابق، ص 533.

[18] - ينظر: عبد الإله بوغابة، (علم المعاني علم المقاصد التداولية)، ص 91.

[19] - ابن خلدون، المقدمة، تح عبد الله محمد الدرويش، دمشق ، سوريا ، ط1 ، 200 ،4 ص 387.

[20] - ينظر: زيتسلاف وورزنياك، مدخل إلى علم النص، تر سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2003 ، ص 87.

[21] - ينظر: سامية بن يامنة، الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط1 ، 2012، ص 109.

[22] - ينظر: العلوي، الطراز، ج1/ 108.

[23] - ينظر: عبد الإله بوغابة، (علم المعاني علم المقاصد التداولية)، ص 91.

[24] - العلوي، الطراز، ج1/ ص 106.

[25] - ينظر: توفيق علي الفيل، الفصاحة مفهومها و بم تتحقق،حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية 06،الرسالة27 ،1985 ، ص 19، 20.

[26] - ينظر: عبد الإله بوغابة، علم المعاني علم المقاصد التداولية، ص 90 .

[27] - ينظر: علي آيت أوشان، السياق و النص من البنية إلى القراءة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء المغرب ، ط1، 2000، ص 68.

[28] - ينظر: جبر ضومط، فلسفة البلاغة، المطبعة العثمانية ، بعبدا ، لبنان ، دط ، 1998 ، ص 13.

[29] - ينظر: علي آيت أوشان، النص و السياق، ص 68.

[30] - أبو حيّان التوحيدي، الإمتاع و المؤانسة، تح، أحمد جاد، دار الغد الجديد، القاهرة، مصر، ط 1، 2009 ، 2/ 281.

[31] - العلوي،الطراز، ج1/ ص 106.

[32] - ينظر: منيرة محمد فاعور، الحاكم البلاغي دراسة في التفكير البلاغي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ، سورية ، دط، 2010، ص 30.

[33] - العلوي، الطراز، ج1/ ص104.

[34] - ينظر: منيرة محمد فاعور، الحاكم البلاغي، ص 31.

[35] - ينظر: رفيق خليل عطوي، صناعة الكتابة،دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان ، ط1، 1989 ، ص 07.

[36] - ينظر: عبد الإله بوغابة، علم المعاني علم المقاصد التداولية، ص 87.

[37] - العلوي، الطراز ج1/ ص 122.

[38] - ينظر: منيرة محمد فاعور، الحاكم البلاغي، ص 51.

[39] - العلوي، الطراز ج1/ ص 122.

[40] - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان، ط1، 2005 ص 40.

[41]- ينظر: أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي و الأوربي، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة، مصر، (د ط)، 1998، ص 09

[42]- ينظر: عامر بن عبد الله الثبيتي ، المآخذ على فصاحة الشعر إلى نهاية القرن الرابع ، المدينة المنورة المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 2007 ، ص 28

[43]- العلوي الطراز، ج2/ ص 71.

[44]- ينظر: محمد كريم الكواز، البلاغة و النقد المصطلح والنشأة والتحديد، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت لبنان، ط1،2006 ، ص 283.

[45]- ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب ط2 ، دت ، ص 245.

[46]- ينظر: محمد كريم الكواز، البلاغة و النقد ، ص 284.

[47]- العلوي، الطراز، ج2/ ص 179.

[48]- ينظر: ماهر شعبان عبد الباري، التذوق الأدبي طبيعته، نظرياته، معاييره، دار الفكر، عمان الأردن، ط 1 2009، ص 153.

[49]- ينظر: حافظ إسماعيل علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ، د ط 2011 ص 133.

[50]- العلوي، الطراز، ج3/ ص 225.

[51]- ينظر: ماهر شعبان عبد الباري، التذوق الأدبي، ص 73.

[52]- ينظر: المرجع نفسه ، ص 151.

[53]- العلوي، الطراز، ج3/ ص 233.

[54]- المصدر السابق، ج1/ ص 104.

[55]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 67.

[56]- علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تح حاتم صالح الضامن ، دار البشائر، دمشق ، سورية، ط1 ، 2003 ص 155.

[57]- ينظر: ماهر شعبان عبد الباري، التذوق الأدبي، ص 156.

[58]- العلوي، الطراز، ج3/ ص 225.

[59]- المصدر نفسه، ج2/ص 178.

[60]- ينظر: علي آيت أوشان، السياق و النص الشعري، ص 71.

[61]- العلوي، الطراز، ج3/ ص 225.

[62]- ينظر: مصطفى الغرافي، (عن البلاغة دراسة في تحول المفهوم)، ص 201.

[63]- العلوي، الطراز، ج2/ ص 167.

[64]- ينظر: شكري الطوانيسي، المقام في البلاغة العربية، دراسة تداولية ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، الكويت ، عالم الفكر، العدد01 ، مجلد42 ، 2015 ،ص 60.

[65]- العلوي، الطراز، ج2/ ص 167.

[66]- المصدر السابق، ج3/ ص 44.

[67]- المصدر نفسه، ج1/ ص 30.